كتاب الجمهورية

حوار الحضارات

Bibliotheca Alexandrina
0133432

نجوان محرم

كتاب الجمهورية

حوارى .. لها تاريخ

نجوان محرم

إهـــداء

إلى من علمتنى كيف أحب الحرف .. وأحترم الكلمة ..
إلى أمى ..
وإلى يحيى السعيد ..
زوجى وصديقى .. وأستاذى فى الحياة

المقـــدمة

الزمان : عام ١٩٧٩ ...
والمكان : قاهرة المعز ..
سيدة المدائن .. وقاهرة الزمان ..

والقلب يخفق مع كل خطوة على أرض الحوارى العتيقة التى شهدت أمجادا .. وعاشت أزمانا مليئة بالعز والعزوة ... وعلى أرضها دارت معارك وسقط ثوار ... وتنفست كرامة وعشقا لمصر المحروسة ... وقهرت طغاة ... وغزاة .. ومعتدين ... وعاشت فى وجدان الزمان ألف عام ويزيد ..

قاهرة ... قادرة ... غالبة .. فلا نامت أعين الجبناء ...!!

* * *

وجهتى كانت الحوارى القديمة فى قاهرة المعز ...

أى القاهرة الحقيقية ... قاهرة الناس البسطاء الطيبين ...

وفى هذه الحوارى الصغيرة الحجم ... الكبيرة المعنى عشت شهورا طويلة ... وخرجت منها وقد تعمقت مصريتى أكثر ... ولمست تماما معنى كلمة مصر ...

فى أعماق هذه الحوارى تحيا مصر الحقيقية ويحيا المصرى الأصيل ..

المصرى الذى لم تتغير صفاته منذ ألاف السنين ...

المصرى الذى يحمل صفات الطيبة .. والبساطة .. والجدعنة .. وعشق العمل .. والتكافل .. والرحمة .. وعزة النفس الرائعة التى يعمقها إتقانه لحرفته اليدوية التى توارثها فى حارته البسيطة منذ ما يزيد عن الألف عام ..

كبرياء العملْ .. وليس كبرياء المال ... الفرحة الحقيقية لكل ما يصيب الآخرين من خير ...

حتى المعارك الصغيرة داخل هذه الحوارى وما أبسط أسبابها عادة ... ما أسرع ما تنتهى بالقبلات والأحضان وتقبيل الرؤوس .. « وإخزاء » الشيطان الذى هو عادة فى كل خناقه تنتهى الآراء إلى أنه السبب الأكيد وهو وحده المدان .. أما هم أهل الحارة فأناس طيبون ليس للغل أو الحقد فى قلوبهم مكان ..

محدودية الرزق خلقت فيما بينهم نوعا من التعاون والخوف على بعضهم البعض والتوحد ضد ما يمكن أن يكون من غدر الزمان ... والرزق فى النهاية نصيب مقسوم ...

فى الحارة قد يتجاور اثنان يمتهنان نفس الحرفة أو يبيعان نفس الأشياء .. والرضا يلقىْ بظله على الجميع . هذا كسب الكثير .. وهذا رضى بالقليل ففى النهاية هو شأن الله مقسم الأرزاق ..

ولقد مر على كتابة هذه التحقيقات وعددها ٤٢ تحقيقا صحفيا فى ٤٢ حارة قاهرية عشر سنوات .. تغير ولا شك بعض ما جاء بها من وقائع وأحداث لكن الجوهر فى الحارة مازال هو ... هو بعد عشر سنوات .. بل إن معظم الحوارى التى كتبت عنها مازالت تحتفظ بنفس الإسم القديم منذ ما يزيد على الألف عام ..

* * *

فى هذه الحوارى رأيت كنوز مصر الحقيقية .. وعزها القديم واستنشقت عطر الزمان .. السعيد والماضى الجميل ...

فى هذه الحوارى أصابع « تتلف » فى حرير تمارس حرفا يدوية تبهر السياح ...

فى الحارة يصنعون أشياء لا تستطيع أى آلة صنعها بهذا الفن والإتقان ... ومازالوا هم فى حواريهم التى عمرها من عمر القاهرة المعزية يبهرون بها العالم ويديرون بها الرؤوس ... واسألوا من يأتون من أبعد البلاد ليبهروا بالدق والنقش على النحاس .. ونقش الذهب ... وتلوين القماش .. وزخرفة الخيام .. وتطريز القصب .. وترصيع الفصوص ... وفى الحوارى هم بعد ذلك كله متواضعون لا يشعرون أنهم يصنعون عجبا ...

وفى الحارة التدين الفطرى العميق ... هم يتنفسون الدين فى كل ثوانى حياتهم ... وهم يذوبون عشقا فى حب النبى وآل بيته الكرام .. هم يديرون قرآن الصبح عند الاستفتاح فى كل دكاكين الحارة ويستمعون إليه فى شغف شديد ...

ثم هم يستعملون فى كلامهم مصطلحات .. ما أرقها وأعذبها حين يستحلفونك إلا فعلت هذا وحياة أبو فاطمة أو صلى ع اللى حايشفع فيك ... وغلاوة الحبيب المصطفى إلا فعلت كذا ... وكيت ...

* * *

ولا أستطيع فى النهاية إلا أن أشكر هؤلاء الناس ساكنى الحوارى العتيقة فى قاهرة المعز ... فلقد فتحوا لى قلوبهم ... وفتحوا لى عيونى على أجمل مافى بلدى .. الناس الطيبين ...

ولقد خرجت من هذه الحوارى بهذه الموضوعات منذ عشر سنوات كاملة ... لكنهم وبصدق شديد دخلوا جميعا قلبى ... ولم يخرجوا منه حتى الآن ..

نجوان محرم

القاهرة أغسطس ١٩٨٩

زقـــاق المـــدق

زقاق المدق بعد ٣٠ سنة .
ماذا بقى من زقاق نجيب محفوظ .

حميدة وعباس الحلو .. والدكتور البوشى .. وزيطة صانع العاهات .. والمعلم كرشة صاحب القهوة .. وعم كامل صانع البسبوسة السمينة .. والمعلمة حسنية وزوجها جعدة .. وست سنية عفيفى مالكة المنزل القديم ..

أسماء كلها لمست بقوة خيال كل من قرأ رائعة نجيب محفوظ « زقاق المدق » فى الأربعينات ..

* * *

فى عام ١٩٤٧ كتب الكاتب الكبير يجسد مأساة الزقاق الصغير الذى مرت عليه الحرب العالمية الثانية فما أصابت فيه جدارا ولا دمرت منزلا . لكنها خلفت وراءها فى أعماق الزقاق جرحا نازفا على الدوام ..

خلق الكاتب الكبير من الزقاق الصغير فى قصته الرائعة صورة مصغرة لمصر وما جرته عليها الحرب العالمية الثانية من ويلات رغم أنها لم تكن طرفا فيها ومع ذلك فقد أثخنتها الجراح ..

ومرت الحرب على الزقاق فسلبته أحلى ما فيه .. حميده وعباس الحلو الحلاق ..

فأما حميدة فاتنة الزقاق فانحرفت تحت تأثير قواد تبيع جسدها للإنجليز .. وأما عباس الحلو فقد مات أيضا بيد سكارى الإنجليز وهو يحاول أن يسترد أمله الحلو .. أو حميدة النقية كما كانت عندما خلفها وراءه فى الزقاق قبل أن يذهب للعمل فى معسكرات الإنجليز ..

كان هذا هو زقاق نجيب محفوظ الذى ذاق ويلات الحرب فى الأربعينات وصوره فى روايته وقدمته شادية فى فيلم .. وفى هذا العام إكتمل من عمر القصة الرائعة ثلاثين عاما بالتمام فكيف الزقاق الآن ؟؟

من بقى من أبطال القصة فيه ومن مات ..؟

هل كانت هناك حقا حميدة وأمها ..؟؟ وعباس الحلو وعم كامل وزيطة .. وكرشه .. وكل هؤلاء الذين خلقهم بقلمه الساحر نجيب محفوظ ..؟؟.. من سكان الزقاق الآن .. هل تغيروا كثيرا عما كتبه الكاتب الكبير ..؟؟ وهل هم الذين كانوا حقيقة بالزقاق منذ سنوات ثلاثين ..؟؟..

* * *

على يمين القادم من ميدان سيدنا الحسين .. وعن يسار القادم من شارع الصاغة مخلفا وراءه جامع الأشرف وقبل أن ينتهى شارع الصناديقية فى جزءه المسقوف الظليل يقع الزقاق ..

إنه الوحيد فى الشارع كله الذى تظلل مدخله تكعيبة عنب كبيرة متشعبة الفروع .. إستقبلتنى فى مدخله رائحة قوية نفاذة هى العطارة كلها مجتمعة فى رائحة واحدة تلف الوافد على الزقاق ..

مدخل الزقاق مرصوف بالحجر الأسود اللامع الكبير .. وعلى اليسار فى مواجهة القهوة يقوم بيت عتيق .. يليه على نفس الجانب باب كبير مغلق أو أغلق لعدم الاستعمال وقيل أنه كان يشغله ترزى عربى فى زمن بعيد ..

ثم .. وكالة العطارة فى الزقاق لصاحبها الحاج عبدالرحمن زيد .. وراء الفرن تماما تقع الخرابة التى كانت فى القصة مقرا لزيطة صانع العاهات الذى كان يتخذ منها مأوى ومستشفى خاص يصنع فيها على هواه ما شاء من عاهات للشحاذين ..!!

على يسار « الخرابة » فى مواجهة الفرن بعض سلمات دكان صغير يشغله نقاش نحاس وفى أعلى الزقاق منزلان متهاويان كان المعلم كرشة فى الرواية يشغل أحدهما وفى الآخر كان يسكن السيد رضوان الحسينى الرجل التقى الذى ابتلاه الله بفقد الأولاد واحدا بعد الآخر فتعزى بالصبر الجميل ..

يسكن المنزلان الآن أم بدر صاحبة الثمانين عاما من العمر والستين عاما فى عشرة الزقاق وفى الآخر ام أحمد وأولادها الذين ورثوا الفرن عن أبيهم وجدتهم أم سالم التى تناظر حسنية الفرانة فى قصة نجيب محفوظ ..!!

مدخل الزقاق تكعيبة العنب والقهوة المعروفة لكل عاشق للرواية المشهورة

خيط رفيع بين الحقيقة والخيال ..

من حيث الوصف لم يتغير شيء فى الزقاق عما وصفه فى قصته الاستاذ نجيب محفوظ .. التكعيبة مازالت والقهوة أيضا .. والفرن .. والبيوت .. لكن الناس .. الناس فى الزقاق الحقيقى هم مطلبى الآن ..!!

* * *

إلى أسفل إذن ثانية .. إلى أول الزقاق بعد أن كنت قد صعدت إلى أعلى .. إلى نهايته .. والصبح مازال بعد فى ساعاته الأولى .. والقهوة المفتوحة الأبواب معتمة بعض الشيء .. وبالداخل عم عبده يرص الكراسى والمناضد ثم يعيد ترتيبها مرة أخرى وهو يغنى مقاطع مختلفة من أغنيات قديمة بصوت مشروخ والمنزل المقابل القديم ليس فيه غير نافذة واحدة مفتوحة يتدلى منها لحاف أحمر اللون من الستان إمتلأ بالبقع وبلى فى مواضع عديدة من كثرة الاستعمال ..

● الدق المتواصل فى الزقاق يطغى على ما عداه من أصوات .

عم عبده القهوجى فى الحلقة السادسة من العمر مازال يرص الكراسى من جديد ويمسح الموائد وحده دون مساعدة صبى « كان للمعلم كرشة فى الرواية صبى وحيد هو سنقر » ..

يتصعب عم عبدالنبي يوسف « عم عبده » فى أسى وهو يقول : بعد ٢٢ صبى فى القهوة كانوا بيخدموا على الزقاق والصاغة والصناديقية والخان لغاية ميدان سيدنا الحسين بقيت لوحدى من غير صبى واحد فى دى الزمان .. كله اتغير .. كله ..

فنجال القهوة اللى كان بنكلة سنة ٣٨ بقى بسعة صاغ .. شايفة دى .. « أشار إلى كنكة نحاسية كبيرة الحجم كالإبريق معلقة فى ركن من الحائط بعيد » .. دى كانت تملأ ثلاثين فنجان « بيشه » صغير وكان الفنجان بمليم ..

● كان كل صبى يخرج بيها مليانة ساعة الصبحية يسقى الدكاكين ويرجع بتلاتين مليم .. الدنيا كان رخا .. والعيشة حلوة .. والبال مرتاح ..

● أبويا ساب لى القهوة دى ومات عن ١٠٤ سنة وكان بيسقى فى الشارع لآخر يوم فى عمره ..!!

استراح عم عبده تماما فى مقعده وهو ينطلق فى الحديث ..

● كان القهوجى بيسموه « باشا مخفى » لإنه بيكسب مكسب من غير رأسمال .. لكن دلوقت .. منين المكسب بيجى .. منين .. التموين كله أول عن آخر أربعين كيلو سكر فى الشهر باشترى قدهم من خارج التموين .. !!

● والبن اللى كان أول ما استلمت القهوة سنة ٣٨ بستة صاغ الرطل بقى بأربعة جنيه .. !! والسكر اللى كان بأربعة صاغ بقى بثلاثين .. !!

● صحيح الضرائب على القهوة مفيش لإنها قهوة صغيرة ومابتكسبش لكن وحياتك اللى جاى أقل من اللى رايح .. الزمن اتغير .. ومش ممكن يرجع من جديد ..

● القهوة دى عمرها ١٥٠ سنة بالتمام .. عمرها من عمر جدى أبو أبويا .. كانت كلها « عرابيسكة » بس الزمن جارٌ عليها .. والزقاق ده فى زمانه كان زينة الحتة من سيدنا الحسين لغاية الغورية والمغربلين ..

● العطارة كلها كانت تندق هنا فى الزقاق وتطلع منه على بر الشام .. وعلى كل البلاد .. وأبويا قال لى إن العبيد كان بتتباع فيه كمان .. !!

● الفرن اللى فى الرواية موجود .. وصاحبته كان اسمها أم سالم .. بس تعيشى انت .. والخرابة برضه موجودة .. بس بقى القصة بتاعة الاستاذ نجيب محفوظ هيه اللى مش موجودة فى الزقاق .. أنا بس اللى موجود .. أنا والقهوة ..

أمـــى .. عايـــزاك ..

من النافذة المقابلة للقهوة أطلت فتاة سمراء بعيون واسعة نادت ..

● خال .. يا خال .. إطلع أمى عايزاك ..

فى المنزل المقابل حيث كانت تسكن حميدة فى القصة تقطن الآن عائلة عم سعيد الجزمجى ..

يحتل عم سعيد حجرة يتخذ منها مصنعا صغيرا للأحذية .. وفى حجرتين هما بقية البيت تعيش زوجته .. وعزة .. آخر العنقود ..

صعدت السلم المهدم مع عم عبده خال الست جميلة صاحبة البيت وزوجة عم سعيد الجزمجى ..

عم ابراهيم صاحب القهوة فى الزقاق أو المعلم كرشة فى رواية نجيب محفوظ .

استقبلتنا الست جميلة بوجه مكفهر حاولت أن تبسط أساريره فى مواجهة الضيوف وعلى شعرها كانت عزة تضع حناء حمراء لتدارى الشيب الذى تسلل إليه ..

واصلت عزة عملها فى هدوء تضع الحناء على رأس أمها بدقة وأناة وهى ترحب بنا بينما انفعلت ست جميلة وهى تشرح لخالها كيف أنها لثالث مرة فى هذا الشهر تذهب إلى الأوقاف لتقبض الـ ١٥٠ قرشا نصيبها فى الوقف فلا تجد الموظف لأنه فى أجازة ..

تطلب ست جميلة من خالها أن يشوف له صرفة مع موظف الأوقاف ..

عزة مازالت تواصل فى صمت وضع الحناء على رأس أمها ..

عزة عيونها مصرية .. ولونها لون الطمى الخصب الغنى وشعرها المجعد حالك السواد .

تتمنى عزة لو بنت الحكومة الخرابة الموجودة بجانب الفرن فى الزقاق مساكن شعبية ليعود إليها كل من خرج من الزقاق ..

أسألها .. والبيوت القديمة يا عزة .. أين تذهب ..؟؟

تجيب فى حماس .. تفضل زى ماهية فى الزقاق ..!!

أجيب .. لكن الأرض قد لا تحتمل دق الأساس فتنهار البيوت القديمة فى الزقاق .. !!

تمتلىء عيونها الضاحكة بهلع خفيف وتجيب فى تصميم .. يبقى نفضل زى ما احنا .. ويفضل الزقاق .. !!

عزة فى بكالوريوس الخدمة الاجتماعية هذا العام .. وهى اخت صغرى لضابط .. ومهندس .. ومحاسب .. وموظفة .

ويأتى عم سعيد من الداخل .. هو صاحب عيا وعصبى للغاية لأنه وهو فى هذه السن مضطر لأن يعمل بيديه ..

- قال .. كل الصبيان مشيوا .. اللى هاجر .. واللى فتح لوحده .. واللى هرب من الصنعة كلها .. وفضلت أنا وحدى ..
- يا ريت أيام زمان تعود .. كان أحسن جوز جزمة بـ ٥٥ قرش من الجلد الأجلاسيه وكانوا يلبسوه الأكابر .. وكان الصبى يوميته ٣ صاغ دلوقت جوز الجزمة بخمسة جنيه والصبى يوميته جنيه ..

ست جميلة مازالت توصى عم عبده بأن يتصرف مع موظف الأوقاف ونحن نهبط السلم بحرص محاذرين أن ينهار ..

الحـــلو كـــان هنـــا ..

اتجه مع عم عبده صعودا فى الزقاق حتى الفرن الذى هو مخزن للعطارة الآن .. هو تماما كما وصفه نجيب محفوظ .. لكن أصوات الدق المتواصل تنبعث من داخله الآن وعلى بابه ميزان كبير منصوب يحمل جولات العطارة ذات الرائحة النفاذة ..

الفرن الآن تسلمه الحاجة على أبوزيد .. اشتراه من أولاد أم سالم صاحبة الفرن عام ٥٧ بمبلغ ١٦١ جنيها وحوله إلى مخزن كبير للعطارة من كل الأصناف ..

ومن أجل ذلك فالدق لا ينقطع من زقاق المدق ..

لكن الحاج على ليس من أهل الزقاق وإنما جاء من أسوان .. واستأجر

هذا المخزن لبضاعته من أصناف العطارة .. لذلك لا يعلم كثير عن الزقاق لكنه مع ذلك قال إنه سمع من يقول أن عباس الحلو كان يقينا يشغل المحل المجاور لوكالة فى أول الزقاق والمغلق الآن ..؟؟..

من الفـــن إلى النحـــاس

الزقاق يلتوى صاعدا بضع درجات أخرى تتوقف عند دكان صغير مغلق بضفة لا تزيد مساحته عن مترين وبداخله ثلاثة أشخاص .. رجل فى حوالى الخمسين واثنين من الصبية وتحت أيديهم يبرق النحاس الأصفر بلونه الجميل وهم .. يواصلون النقش عليه ..

الرجل هو محمد اسماعيل الذى ترك العمل كمزيكاتى بشارع محمد على وبدأ وهو فى هذه السن ينقش على النحاس ..

محمد اسماعيل هو إبن أخت أم سالم رحمها الله ..

عندما ضاقت به الدنيا فى عالم الفن جاء إلى الزقاق فاستأجر من خالته هذا الدكان بجنيهين وبدأ ينقش على النحاس ..

قال إن الفن لا يمكن أن يغنى أو يشبع من جوع ..!! والدنيا غوله فلوس ..!!؟

سألته : هل يستطيع الفنان أن يستبدل بالفن النحاس وفى مثل هذا العمر ..؟؟

غطت عينيه طبقة رقيقة من الدموع احتجزتها الرجولة والكبرياء وقال ..

- ممكن .. لما الدنيا تعوز .. واستأنف الدق على النحاس .. ثم رفع عينيه فجأة وقال ..
- على فكرة .. كان نفسى أحط الموسيقى التصويرية لفيلم زقاق المدق وأدخل فيها الصاجات والمباخر والدفوف .. ده ياما عباس الحلو حلق لى ونا عيل صغير .. وحميدة .. كانت أحلى من شادية ورب الكعبة ..!! .. أيوه كانوا هنا موجودين .. ده أنا شفتهم ياما بعنيه دول ..!! واستأنف الدق على النحاس ..

زقـــاق المـــدق .. فى نيويـــورك

عن القصة والفيلم يعرف كل أهل الزقاق كل شىء وأيضا عن نجيب محفوظ ..

يحكى عم عبده صاحب القهوة أن « الأستاذ » كما يلقبه الجميع كثيرا ما كان يأتى فى الأربعينات ويجلس فى القهوة صامتا مرتديا نظارة غامقة اللون حتى خرجت القصة إلى الوجود .. لكنه يأسى لأن الأديب الكبير لم يعد يزور الزقاق « زى زمان » ..

زار الزقاق بعد نشر القصة كثيرون .. أدباء .. وفنانين وطلبة معهد السينما والمسرح .. وطلبة الفنون ..

جاء أحدهم يوما .. وفى ساعات الصباح الأولى إعتلى ظهر عربته وبمفك صغير خلع اللافتة التى تحمل إسم الزقاق من على الحائط ووضعها تحت ذراعه .. ومضى ..

يحكى أهل الزقاق بانفعال شديد أنه أخذها للذكرى وعلموا بعد ذلك من أصدقائه أنه سافر بعيدا إلى نيويورك ليعمل هناك ..

من خوفهم أن تصبح عادة .. خلعوا اللافتة الأخرى التى تحمل إسم زقاقهم من على الحائط المقابل وأخفوها فى خزنة عم سعيد الجزمجى لئلا يستولى عليها معجب آخر بزقاقهم .. وهكذا أصبح الزقاق بلا لافتة تحمل إسمه ..

حقيقة مؤكدة لاحظتها طيلة ساعات وجودى فى الزقاق وهى أنه بالرغم من ضيق الزقاق ووجود الخرابة بكل ما تحويه من قاذورات ومخلفات فلا أحد يريد أن يغادر الزقاق ..

أحسست أنهم يشعرون جميعا بأنهم يحملون علامة مميزة لا يريدون أن يفقدها .. فلقد كتب عنهم سيد أدباء العصر .. كما أن الظل هناك تحت التكعيبة الوارفة الظلال .. والسكون أيضا رغم صخب وضجيج شارع الصنادقية الكبير .. والألفة والقرابة والود والتراحم يبسط ظله على الجميع فالكل أقارب وأهل تجمعهم سنين العمر والنشأة الواحدة فلماذا يتفرقون ..؟؟

وبالرغم من ذلك فبالزقاق طبقية ..!!

من عند التكعيبة وحتى الفرن القديم فهذا هو الزقاق أما ما يلى ذلك فيسمونه « الخرابة » رغم أن به دكان ومنزلين ..

بداية الزقاق بها المياه .. والنور .. والجزء الباقى يعتمد على حنفية عمومية للمياه .. ويقترضون من مخزن العطارة أى الفرن القديم .. الكهرباء ..

الشىء المشترك بين الخرابة والزقاق هو عدم وجود مجارى على الاطلاق .. لكنهم وبالرغم من ذلك راضون وباقون .. بل ولا يشكون من شىء خشية أن تنقلهم الحكومة إلى خارج الزقاق بحجة التحسين ..

* * *

أيـــن أحمـــد

أعاود الصعود فى الزقاق إلى ما بعد الخرابة لأجد فى أحد البيتين أم أحمد .. وارثة الفرن القديم هى وأولادها عن زوجها سالم ..

أم أحمد كانت عائدة من زيارة إبنها الأكبر السجين فى سجن طنطا كما انفلت بهذا لسان أحد الأطفال .. !! لكنها لم تشر إلى هذا لا من قريب ولا من بعيد وإنما ذكرت أنه يعمل فى طنطا وأنه كسيب .. !!

تظاهرت بتصديقها وسألتها عن حماتها صاحبة الفرن فنفت بشدة أنها كانت كما صورها نجيب محفوظ « شرانية » وتضرب زوجها ..

● قالت .. مالوش حق سى نجيب .. والنبى لو كان شافها وعاشرها كان حبها أوى .. لكن معلش يمكن أكل عيشه هو اللى حكم عليه يكتب كده .. !!

على مدى ثلاثة أيام حاولت أن أعرف بأى تهمة سجن أحمد بن أم أحمد .. لكن الجميع اتفقوا على عدم البوح بأى شىء عنه ..

أجمع الكبار على أنه يعمل فى طنطا .. وأن زقاقهم لا يعرف الجريمة أو الانحراف .. بينما لزم الصغار الصمت المطلق وبدوا وكأنهم قد تلقوا تنبيها مشددا بعدم الكلام ..

أحسست أنهم من شدة حبهم للزقاق يريدون أن تبقى صورته لا تشوبها شائبة فى عيون الاخرين .. !! وفيما بينهم فهم ستر وغطا على بعضهم وعلى زقاقهم .. !!

عزه شباب زقاق المدق .

ست جميلة من معالم الزقاق .

أواصل الصعود إلى أعلى حيث أم بدر أكبر من فى الزقاق سنا فهى قد تجاوزت الثمانين ..

جاءت من الصعيد مع زوجها المرحوم .. وكان راجل وكان كسيب ..

- من ستين سنة جينا الزقاق فى نفس البيت .
- كان إيجاره فى الشهر ٣٥ قرش .. وكان الخير كتير .. والعز كتير .. والأولاد كتير ..
- الراجل مات .. والعز راح .. والأولاد كل واحد ربنا يسهل له خدته واحدة ومشيت بيه وفضلت وحدى زى ما انتى شايفة فى الزقاق ..
- أيوه شفت الفيلم كله .. !! حاكم كل ده حصل فى الزقاق .. أيوه كل اللى فى الفيلم كانو هنا حبايب وجيران ..

● إيه .. بتقولى إيه .. ؟؟ حميدة كانت ساكنة فين .. ؟؟ .. حميدة مين .. ؟؟ ..

انحدر الآن هابطة ثانية إلى مدخل الزقاق ..

أمر مرة أخرى على المقهى القديم ..

كانت الشمس قد مالت صاعدة فى السماء .. والقهوة لم يفد عليها أحد بعد .. وعم عبده على بابها على كرسى من القش .. يغفو فتميل رأسه على صدره .. وينتبه فيهش بالمنشة ذبابة وهمية عن وجه .. قبل أن يطويه ثانية النوم ..

الأصوات هدأت كثيرا فى الزقاق .. والتكعيبة تهتز أوراقها من نسمة طرية ضلت طريقها وسط هذا الجو الحار .. وأعلى الحائط فى مدخل الزقاق مربعان خاليان يشيران إلى مكانى لافتتين .. إحداهما الآن فى نيويورك والأخرى تختفى فى خزنة عم سعيد الجزمجى خوفا عليها من السرقة للذكرى والتاريخ ..

مع صاحب الزقاق نجيب محفوظ

تبقى بعد ذلك عن الزقاق كلمات .. فمن يقولها .. ؟؟

يقولها صاحب زقاق المدق .. الذى أخرجه من جسم شارع الصنادقية الكبير حيث يختفى إلى وجدان مصر كلها ..

يقولها من أهدى إلى المصريين زقاق المدق فى سطور لا يمكن أن تفنى حتى إن فنى الزقاق ..

كلمات يقولها أديبنا الكبير الأستاذ نجيب محفوظ ..

● بدأت كتابة زقاق المدق فى عام ٤٤ وخرجت للناس عام ٤٧ وكنت أكتبها والحرب دائرة ..

● علاقتى بالمنطقة كلها علاقة قلبية .. روحية .. أنا مولود فى هذه المنطقة .. واتصلت خيوط صباى بهذه الأماكن .. بسيدنا الحسين وبالجمالية والزقاق والخان وقهوة الفيشاوى .. وكنت بعد أن تركت المنطقة إلى العباسية أعود .. وأعود مرارا يشدنى قلبى إلى كل المناطق التى طالما أحببتها ..

الوكالة فى الرواية خيال ... وفى الزقاق واقع .

● كنت من عشاق الزقاق .. شدنى إليه قلة الناس فيه وشكله الخاص .. تكعيبة العنب .. والقهوة الوحيدة .. واسمه الغريب .. وعندما بدأت فى كتابة القصة أخذت منه الإسم فقط فلا صحة إطلاقا لوجود أية شخصية من الزقاق فى القصة ..

● لم يدخل أحد من سكان الزقاق فى القصة على الإطلاق ..

● عندما ظهرت القصة إلى الوجود وقدمت على المسرح ثم فى السينما وجد فيها أهل الزقاق نقطة ارتكاز يتكلمون فيها ويقولون أن للشخصيات وجود حقيقى فى زقاقهم وقرأت كل هذا منهم ولم يطاوعنى قلبى على تكذيبهم فأنا أعتقد أن لهم حقا فى الرواية فلقد أعارونى إسم زقاقهم لكن الحقيقة أنه لم يدخل أحد من الزقاق فى القصة ..

لا أذكر من شخصيات الزقاق الواقعية غير صبى القهوة وكان صبيا ظريفا كثيرا ما كان يؤانسنا عند جلوسنا فى مقهاه ..

● إننى واثق تماما أن ما من شخص يعيش فى الزقاق الآن سبق له أن رآنى ..

● انقطعت منذ مدة طويلة عن زيارة الزقاق بسبب مواصلات القاهرة لكننى أتمنى لو عدت لنفسى الأماكن وعلى فترات .. فأنا مشدود إلى هناك بحكم النشأة والعشرة .. والحب ..

.....

.....

.....

.....

.....

حـــارة خوشـــقدم

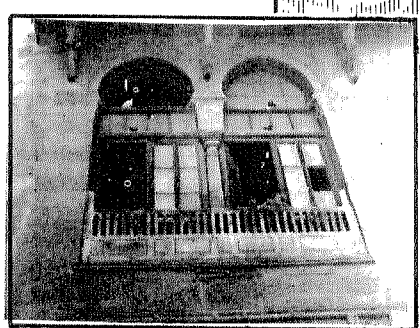

هيئة الآثار احتلت بيت شهبندر التجار ..
قطعة من أغلى آثار المماليك .. ضاعت وسط مكاتب وملفات الموظفين ..
القصبجية انتهوا وبقى عم أحمد .. والحمامات انقرضت وبقى حمام الجبيلى ..

على أرض هذه الحارة رأيت الزمان القديم يبعث حيا نابضا يضج بالحركة والحياة ..

فى هذه الحارة الضيقة يكاد المرء وهو يسير على أرضها المبلطة بالحجر الأسود اللامع وتحت مشربياتها الخشبية المعلقة فى البيوت أن يسمع صليل السيوف وصهيل الخيول .. وخطوات تسترق الخطى فى الظلام يعلن دبيبها الخافت عن مؤامرة تدبرها طائفة من المماليك لطائفة أخرى أيضا من المماليك .. فى هذه الحارة الضيقة تعود مصر القديمة إلى الحياة بمماليكها .. وجواريها وسلاطينها .. ونساءها المحجبات ..

* * *

فى هذه الحارة تبعث فى أواخر القرن العشرين قطعة من قاهرة المعز .. والمستنصر .. والسلطان الغورى وطومان باى .. بنفس بيوتها .. وعطفاتها .. ومنحنياتها بل وبعض حرفها أيضا التى لم تزل فى الحارة منذ مئات السنين .. بل ويبقى الاسم أيضا « خوشقدم » كما هو منذ خمسمائة عام .. تتوارثه الحارة الطويلة الضيقة المتفرعة من شارع الغورية العتيد بالقرب من وكالة الغورى وعلى بعد أمتار من باب زويلة العظيم ..

كأنها تختفى بكنوزها من الزمن .. ومن الناس هذه الحارة .. حارة خوشقدم .. فمدخلها يرتفع عن مستوى الشارع بضعة أمتار ثم ينحنى بشدة لتختفى الحارة تماما بعد ذلك وراء صف كامل من البيوت تطل على شارع المعز لدين الله « الغورية » فلا يبين لها أثر من الشارع ولا يستدل عليها إلا من يعرفها من قبل ويعرف أن هاهنا حارة خوشقدم ..

تظلم إظلاما شديدا فى معظم أجزائها وتضىء بضوء خافت للغاية فى أجزائها الأخرى عدا المدخل لأن به قهوة زاعقة الأضواء .. وفى كل بضعة أمتار يصادف السائر عمودا قديما يحمل مصباح غاز الاستصباح القديم مطفأ طبعا فقد عفى عليه الزمان وراح من كان يمر بمشعله ليضيئه .. وانقرض .. وحل محله مرفق الكهرباء الهمام .. وياليته بقى ..

● حارة مميزة ولا شك .. فماذا تحوى حارة خوشقدم..؟

سلطان بالصدفة

من هو خوشقدم الذى ظلت الحارة تحمل اسمه مايزيد عن خمسمائة عام..؟

يقول المقريزى فى خططه عن تاريخ القاهرة أن خوشقدم هذا هو السلطان أبو سعيد سيف الدين خوشقدم الناصرى أحد سلاطين دولة المماليك الجراكسة .. تولى عرش مصر عام ٨٦٥هـ وتوفى فى عام ٨٧٥ . وكانت الحارة التى سميت باسمه هى مقر إقامته وهو بعد أمير قبل أن يصبح سلطانا ..

اللعب بالذهب والفضة

إذا تغاضينا عن القهوة الحديثة الملمعة بالأضواء التى تحتل مدخل الحارة فكل ما فى الحارة قديم عتيق .

● بعد القهوة مباشرة تبدأ حارة خوشقدم الحقيقية فى الظهور .. ضيقة .. خافتة الضوء ..

● فى بدايتها دكان أثرى قديم لا اسم له .. أمام بابه نول يدوى يشد عليه شيخ عجوز قطعة من القماش عليها خيوط ذهبية تخطف الأبصار .. وتحت مصباح الشارع ونور الدكان ينحنى عم أحمد القصبجى ليخرج من بين أصابعه فنا جميلا للناس ..

● منذ خمسين سنة وعم أحمد القصبجى يعمل فى هذا الدكان .. يطرز بخيوط الذهب والفضة على القماش آيات القرآن الكريم وزخارف عربية وستائر مطرزة باليد .. وكان من قبل يشارك فى تطريز الكسوة الشريفة للكعبة ..

● لم أكد أصدق عينى وأنا أرى كل هذا الجمال والدقة والبراعة فى الرسم والتطريز .. كانت الخيوط الذهبية تلمع كالفرحة فى عز أوانها ونظرت بتقدير عظيم إلى الرجل العجوز الذى أحنى الزمن والعمل المتواصل ظهره وهو يواصل عمله فى سكون ..

● أشفقت أن أسأله فلقد تكلم وقدم نفسه التطريز البديع خير تقديم ولكنى مع ذلك سألت وأجاب ..

● قال عم أحمد القصبجى الذى يبلغ من العمر ٦٦ عاما ..

● الضروريات النهارده غطت على الكماليات .. مين دلوقت يفكر يكلف مفرش السرير بالقصب شغل اليد ٥٠٠ جنيه .. ؟

● مافيش حد .. مع إن زمان كان جهاز العروسة مايكملش إلا بالمفرش القصب ..

● من ٤٠ سنة كان كيلو القصب الخيط من ألمانيا وفرنسا والهند باتنين جنيه دلوقت الكيلو حصل ٤٠٠ جنيه ..

أنا مش زعلان من حاجة .. الرزق ده بتاع ربنا هوه اللى بيقسمه لكن زعلان ع الفن الجميل اللى حايموت معانا لما نموت إحنا ويندفن فى القبور ..

● نفسى الدولة تمد إيدها للأسطوات الكبار عشان يعلموا الصغيرين .. عشان مصر تفضل أم الدنيا على طول ..

● الإيد الفنانة اللى بتشتغل خلاص مفيش .. والقصبجية انتهوا وحايبقوا بعد كام سنة ذكرى وتاريخ .. !

بائع دوائر المعارف

قبل نهاية حديثى مع عم أحمد القصبجى كان قد أقبل شاب كل مافيه حديث .. بذلته الجينز الغالية .. تسريحة شعره .. إيقاع كلامه السريع ..

● تقدم فصافح عم أحمد وقبله باشتياق ثم جلس صامتا على كرسى صغير أمام الدكان .. وعندما انتهى عم أحمد من الكلام قدمه لى قائلا .. الأستاذ ممدوح اللى بيستلم الشغل ويصدره لبلاد برة .. !!

- وتكلم ممدوح شبل فقال .. لايعرف هذا الرجل عم أحمد قدر نفسه تماما .. ونحن أيضا المصريين لانقدر أمثال عم أحمد حق قدره ..
- عم أحمد وأمثاله من القصبجية ثروة قومية يجب أن نحافظ عليها لو ضاعت وانتهت لن نتمكن من تعويضهم أبدا ..
- واستطرد ممدوح الذى كان يبدو متحمسا ومنفعلا جدا .. أصاب بالفزع الشديد كلما تذكرت أن القاهرة بأسرها لم يعد فيها غير ٩ فقط من القصبجية على قيد الحياة ..
- الدولة بيدها إنقاذ الموقف بإنشاء مدرسة أو مركز تدريب قبل أن ينتهى هذا الجيل .. وينتهى من مصر فن التقصيب .. أما أنا فمنذ عثرت عليه وأنا لاأمل المجىء إلى هنا والجلوس أمامه لأرقب أصابعه الفنانة وهى تصنع الجمال .. وذلك خلال فترة تواجدى فى مصر .. فإنا لاأقيم حاليا فى مصر .. وإنما أتنقل بين البلاد .. زرت حتى الآن ٣٥ دولة أبيع فيها الكتب ..
- تنبهت أذانى جيدا .. كيف ..؟؟ وأى نوع من الكتب ..؟؟
- استطرد ممدوح الذى صرح لى فى بداية حديثه بأنه راسب ثانوية عامة منذ سنوات ..
- هى مهنة غير معروفة فى مصر فأنا أبيع بالتحديد دوائر المعارف فقط فى طبعة شعبية لاتتكلف كثيرا .. أغلى دائرة معارف تتكلف ٢٥٠ دولارا وأتجول فى الدول لأبيع هذه الكتب .. هناك دول ضرورة فى كل بيت أن توجد دائرة معارف على أى مستوى من المستويات بالإضافة طبعا إلى المتخصصين الذين يطلبون دوائر معارف فى فرع معين من فروع المعرفة .. هنا فى مصر لايعرف هذا النوع من النشاط لذلك فكل حركتى خارج البلاد .. لكنى مرتبط ببلدى أشد الارتباط لاتمر شهور إلاوأنا هنا
- فى إحدى جولاتى حملت معى ثلاث قطع مذهبة من صنع عم أحمد إلى أمريكا .. فوجئت من الأمريكان لاأقول بالانبهار ولكن بالذهول للروعة والجمال . وبعت القطعة الواحدة بخمسمائة دولار بينما عم أحمد هنا يصنعها بثلاثين جنيها .. حقيقة لايعرف هذا الرجل قيمة ماتخرجه يداه ..

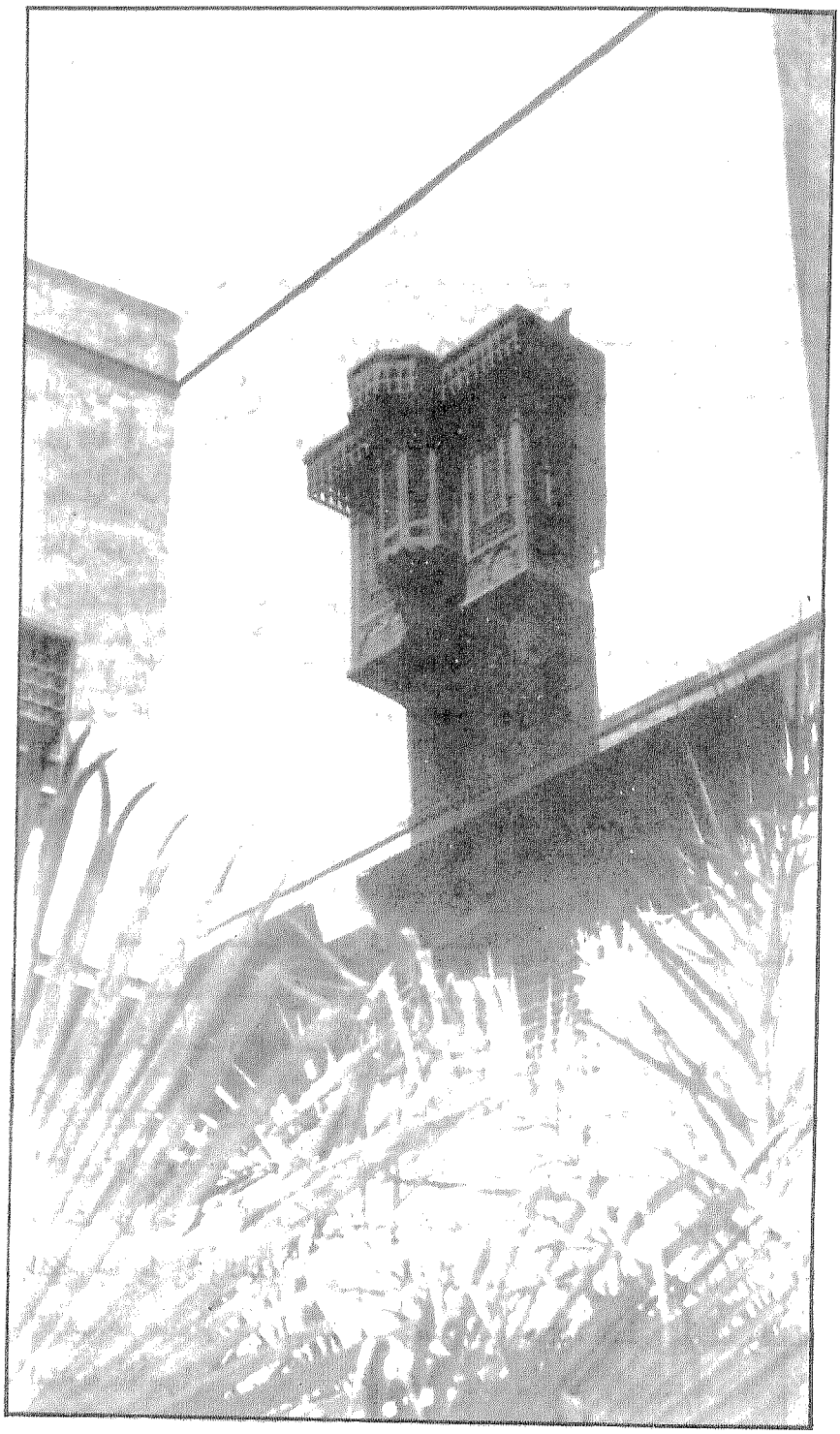

بيت شهبندر التجار .. وأحلى زمان

● المهم عقدت معه اتفاقا أن يمدنى ببعض إنتاجه كلما حضرت لأبيعها فى أمريكا حيث جعلنى فن عم أحمد أكتشف لأول مرة أن الآلة ليست سيدة كل موقف فمازال لليد البشرية قدرة الإبهار ..

ياليل الصب متى غده ..

تركت ورائى عم أحمد يستأنف العمل على النول .. وتركت قدماى تقودانى أيضا فى الحارة الضيقة .. فكل مافيها رغم قدمه بالنسبة لى جديد ..

● هذا الجو الموحى .. وهذه الأبواب من الخشب المعشق الجميل .. وهذه المشربيات المنمنمة التى تطل منها العيون .. كنت أرفع رأسى تلقائيا إليها متوقعة فى لحظة يغيب فيها عنى الزمان أن ألمح من وراء هذه المشربيات عصابة رأس مطرزة ينسدل من تحتها شعر حالك كالليل الطويل .. أو أن تطل عيون ساحرة تستكشف الطريق .. لكن المشربيات كانت جامدة تلقى فى الضوء الخافت بظل عميق السواد على أرض الحارة المبلطة بالبازلت ..

● لكن .. مهلا .. على عتبة أحد البيوت كانت هناك مجموعة من الناس يجلسون على درجات سلم قديم يتوسطهم كهل أسمر اللون .. نحيل .. يغنى بصوت شجى عميق القرار ..

● واقتربت لأسمع موشحا أندلسيا جميلا فى نهايته ثم شعرا جميلا يقول ..

كل السيوف قواطع إن جردت
وحسام لحظك قاطع فى غمده
إن شئت تقتلنى فأنت محجب
من ذا ينازع سيدا فى عبده

● كان الطرب أصيلا .. شجيا ... صوت كالذهب الحقيقى الذى انصهر فسال نهرا يترقرق الصفاء ..

● سألت من يغنى .. ؟؟ فتكلم المغنى الكهل النحيل عبد الرحمن إدريس .. المهنة خطاط .. والعشق للطرب والغناء ..

● يقترب عم عبد الرحمن من السبعين وصوته فى حلاوة السنين الخالية وليست المشوبة بالأحزان ..

● لكن سنوات عبد الرحمن إدريس لم تخل مع ذلك من الشجن والأحزان .. لم تعطه الدنيا اللعوب أبدا ما يريد ..

● من الغورية فى زمن الشباب خرج عم عبد الرحمن يريد أشياء وأشياء... يريد أن يغنى للدنيا وللناس وكان وقتها يعيش قصة حبه التى توجها بالزواج ..

● كان عبد الرحمن إدريس منتشيا بكل شيء فى حياته بالحب .. وبالشباب .. وبالنجاح فهو خطاط فنان والخط الجميل موهبة من عند الله .. وصوته الجميل العذب تصور أنه سيفتح له أبواب الدنيا اللعوب ..

● وتبناه فى زمانه مشاهير الملحنين فلحن له أحمد عبد القادر ومرسى الحريرى .. وسمعه كبار المطربين وكانت له أغنيات خاصة به ..

● وجاءت الليلة التى عاش عبد الرحمن إدريس يحلم بها عندما أستأجر مسرح أوبرا ملك بشارع عماد الدين ليقدم عليه حفله الأول بعد أن كان قد غنى من قبل فى الإذاعات الأهلية .. وبيعت التذاكر عن آخرها وآن للحلم أن يكتمل فينادى من فوق المسرح على الدنيا والنجاح بصوته الجميل ..

● لكن .. حتى الفن الجميل له أيضا وجه آخر قبيح ..!!

● قبل رفع الستار بساعتين كانت الفرقة التى تدرب معها شهورا طويلة لتصاحبه فى ليلة الحلم هذه قد اشترى ذمم أفرادها جميعا مطرب كبير بالنفوذ فانسحبت جميعها وتركته وحده يواجه الموقف بلا معين ..

● إنطلق عبد الرحمن إدريس ليلتها فى شارع عمادالدين يقتضى آلاتى من هنا وآخر من هناك حتى جمع شبه فرقة موسيقية كانت تعزف اللحن وراءه لأول مرة دون تدريب وكانت النتيجة طبعا السقوط الشنيع .. ليلتها كان يغنى لأول مرة أغنيته الخاصة التى لحنها له الشيخ درويش الحريرى شيخ ملحنى عصره ..

● لم يحاول عبد الرحمن إدريس بعد ذلك أن يصالح الفن أو أن ينادى دنيا النجاح .. أغمض عينيه عنهما تماما وانغمس فى الخط يأكل منه لقمته ويربى الأولاد .. وانقلب إلى مطرب عائلى فقط يغنى فى أفراح أسرته والأصدقاء ويشجى أصدقاءه فى الحارة التى تربى فيها بصوته العذب كل مساء ..

● عندما كنت أبتعد عن الحشد الدى يحيط به وهو يغنى اكتشفت أن معظم من يحيطون به ويستمعون له بإنصات عميق هم من الشباب الصغير .. وكان صوته العذب يسرى مع نسمات الليل العذبة فى حارة خوشقدم الضيقة وهو يشدو من جديد ..

باليـــل الصـــب متى غـــــده
أقيـــام الســـاعة موعـــــده
وقـف الســـــمار وأرقهـــــم
أســـف للبيـــن يـــــرددده

● وما أكثر الحكايات فى حارة عصر المماليك هذه فى ليلة من ليالى عام ١٩٧٩ ميلادية فى قاهرة المعز الساحرة ..

الحمام قسا عليه الزمان ..

خطوات أخرى واستوقفنى بناء كبير كان بابه المنفرج قليلا يعلن عن هويته .. هو حمام عمومى .. منسق البناء .. متعدد الحجرات .. ما اسمه يا ترى .. ومن بناه ..؟؟ ومن يملكه .. ومن يديره الآن ..؟؟

● تطوع أكثر من واحد ليستحضر صاحبه عم حسنين الذى أتى من بيته القريب وجلس يحكى حكايته وفى صوته وفى عينيه الانكسار .. قال :

● الحمام الجميل ده من أيام ابويا .. وجدى .. وجد جدى .. وجدودى كلهم .. من أيام الملك الظافر اللى العطفة القريبة دى متسمية باسمه .. كان نوارة الحارة .. وعامل لها حس وقيمة .. لكن الله يلعن الزمن اللى ما بيسبش حد فى حاله ..!!

● لامش الزمن .. الزمن مظلوم .. الله يلعن الطمع اللى بيفرق حتى الإخوات .. !!

● الحمام ده اسمه حمام «الجبيلى» قال عليه المقريزى فى خططه فى تاريخ القاهرة وحواريها بنفس اسمه من يوم ربنا ما نشأه .. كان لما الصبح يطلع يتولع فيه ١٦ أذان تفضل تغلى طول النهار وتملا ٣ أحواض والداخل والخارج ما ينقطع عنه .. والستات ميعادها من الساعة ٢ لخمسة بعد الظهر .. وكان

فيه المكيسين المدلكين والحلاقين .. يدخل الراجل من دول يخرج منه ولا العريس فى ليلة جلوته .. وتدخل الست تخرج وردة مفتحة على غصنها .. وده كله بعشرة صاغ .. حمام .. وحمام بخار .. وتكييس .. وتدليك .. حمام العافية بصحيح .. وفضلت الدنيا على دى الحال لما قام أبويا مات ..

- اختنق صوت عم حسنين وهو يحكى كيف اتفق إخوته فورا على إغلاق الحمام وبيعه بالمتر لينفقوا النقود على الكيف والمزاج .. ثم غلبه التأثر وهو يحكى كيف يريد إخوته أن يخرجوه الآن وهو يقترب من السبعين من بيته التابع للحمام ليهدموه ..
- يرفض عم حسنين الخروج إلا بعد أن يجدوا له مكانا آخر أو يعطوه خلوا يدفعه فى السكن الجديد .. لكنهم سامحهم الله يهددونه بإخراجه بالقوة وهدم البيت ..

بيت شـــهبندر التجـــار ..

أمضى فى الحارة وبرفقتى عم حسنين الحمامى صاحب حمام الجبيلى .. ومع كل خطوة يفوح فى الحارة عبق الماضى الجميل .. وتنتشر رائحة بخور لا أدرى من أين تأتى .. رائحة لطيفة تخدر الأعصاب ..

- أتوقف أمام قطعة مجسمة من الماضى السحيق تطل من المشربيات العديدة التى تزين واجهة منزل جميل عظيم البناء .. الباب ضخم من الخشب الثمين المطعم بالنحاس وله يد نحاسية ضخمة يدق بها من يريد أن يلج الدار ..
- رنت اليد النحاسية على الباب رنينا جميلا يكاد أن ينطق ويقول .. أهلا .. وسهلا بالزائرين .. وانفرج الباب عن صبى صغير جميل كأنه مملوك جركسى بشعره الأسود الناعم وعيونه الواسعة السوداء جرى مسرعا لينادى أباه ..
- وجاء محمد عبد الحميد نوير حارس بيت جمال الدين الذهبى شهبندر تجار مصر عام ١٦٣٧ ميلادية وأغلق الباب الخشبى الكبير .. واقتادنا إلى الداخل وأصبحنا الآن تماما فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة .. وانتقلنا

بالذات إلى عصر السلطان الظاهر برقوق الذى بنى البيت فى عهده ولا شيء يربطنا بتاتا بخارج البيت .. حتى ضجة الحارة غابت عنا وراء جدران البيت السميكة .. وكل ما حولنا مشربيات .. وقاعات مزينة بالصدف وبالزجاج المعشق الملون وبأبيات الشعر وآيات القرآن بالخط الكوفى الجميل ..

- وفى الحديقة كانت الفسقية من المرمر الجميل تلمع رغم مضى مئات السنين على إنشاءها .. والدنيا .. سكون جميل ..!!
- وبدأت الأبواب تنفتح عن القاعات الواحدة بعد الأخرى لتملى وتمتع العين بآثار عز قديم مضى ..
- ياللجمال .. والروعة .. كل حائط بماعليه كنز لايقدر بثمن .. وكل خطوة كانت تنقلنا من روعة إلى روعة ..
- الجدران كلها من المرمر وبطول قامة الرجل كانت تنتظمها الحكم البليغة .. وآيات القرآن .. والشعر الجميل مكتوبة بالخط الكوفى فى نظام جميل ..
- أما قاعة المقابلة الكبرى فمتعة للعين حقا بما تحويه من فنون اللعب بالخشب فى الأبواب والمشربيات وحلية السقف والجدران وفى نهايتها على اليمين قاعة الحمام يقفل عليها باب من الخشب المشغول بعزل الحمام تماما عن بقية البيت ..
- وفى الناحية الأخرى سلم للخدم يهبط إلى أسفل إلى حيث المطابخ وبئر الماء وطاحونة الدقيق ويصعد إلى أعلى حيث قاعات الطعام ..
- وهذا هو باب الحريم .. فى اختفاءه وسط الحائط بفن دقيق حتى لايكاد يبين كل الغموض الساحر للدرر المكنونة وربات الحذور اللاتى كن فى ذاك الزمان ..
- ثم نأتى لأبواب الغرف المطعمة بالنحاس والنقوش .. تنفتح الأبواب على .... على .... مفاجأة قاسية .... على مكاتب حديثة متهالكة من الصاج ..!!
- مكاتب .. مكاتب كثيرة من الصاج الرمادى القبيح الذى لايمت للمكان بصلة .. عشرون ..؟؟ ثلاثون ..!! وبجانبهم المقاعد .. ودواليب صاج لزوم المكاتب ..!!

ما هـذا ..؟؟

- رد حارس البيت .. الموظفين ..!!
- الموظفين ..!! .. أى موظفين ..؟؟
- موظفو مركز تسجيل الآثار الذين ضاقت عليهم الدنيا فلم يجدوا غير هذا الأثر الجميل مكانا لمكاتبهم ..
- الحجرات أصبحت لا تمت للمكان بصلة ..
- بدلا من قناديل الزيت مدت أسلاك الكهرباء ونزع الحجر الأبيض الجميل وصنع من الأسمنت جدران لتتحمل الكهرباء .. نزعت النوافذ والمشربيات وتحولت إلى شبابيك .. وهبطت الأرض فى كثير من المواقع .. وضاعت معالم الأثر الجميل فى هذه الحجرات تحت وطء أقدام أبناء عام ١٩٧٩ ..
- كأنها صفعة قاسية تلك التى أعادتنى إلى الواقع الأليم ..!!
- ألم تجد هيئة الآثار لموظفيها غير هذا المكان ..؟؟
- هل ستستطيع تعويضه أن ضاع ..؟؟
- كيف نعرض نحن وبأيدينا أثمن ما نمتلك من ماضينا للذمار ..؟ كيف طاوعه قلبه هذا الموظف الذى ملأ الجدران بإعلانات منزوعة من الجرائد ونتائج ودقها فيها بالمسامير ..؟؟
- بيت جمال الدين الذهبى شهبندر تجار مصر أصبح الآن مقرا لموظفى إدارة تسجيل الآثار ..
- فى صبح كل يوم يملأون المكان .. يمارسون فيه الأعمال المكتبية والإدارية وينصرفون آخر النهار ..
- من أجل هؤلاء الموظفين ردم البئر الذى كان يمد البيت بالماء .. وهذمت الطاحونة الأثرية التى لم يقو الزمن على هدمها طيلة هذه السنين ..!! وهدم الفرن أيضا خوفا من أن يعجب به السياح ..!!
- سبحانك يارب .. أعطيتنا العقل ليستعمله وتميز به الأشياء .. لكن يبدو أنه فى أحيان كثيرة يغيب ..!!

عم بيومى حلاق خوشقدم من ٦٦ سنة

«ملحوظة» .. لم يطاوعنى قلبى على العودة فى الصباح لأشهد المكان وقد امتلأ بالموظفين .. إكتفيت بالقصة التى سبتها لى رؤية المكاتب العجماء ..!!

وداعا حارة قدم السعد ..

أخذت طريقى إلى خارج الحارة مكتفية بما رأيت .. وقبل أن أصل إلى البداية التى جئت منها توقفت عند حلاق عجوز قالوا لى إنه أقدم من فى حارة خوشقدم .. وأكبر من فيها سنا ..

- عم محمد بيومى حلاق الحارة منذ ٦٦ عاما .. لم تنل منه السنين كثيرا .. فرغم لحيته البيضاء .. وشعره الحليب فما زالت النكتة على لسانه وحديثه شيق غريب قال ..
- خوشقدم دى معناها بالتركى «قدم السعد» والناس عشان تخفف الاسم على لسانها تقول دى حارة «حوش آدم» ..
- من ٦٠ سنة لما جيت الحارة دى كانت حارة سد ..
- الدنيا والله اتغيرت لأحسن بس الناس مش فاهمة حاجة ..

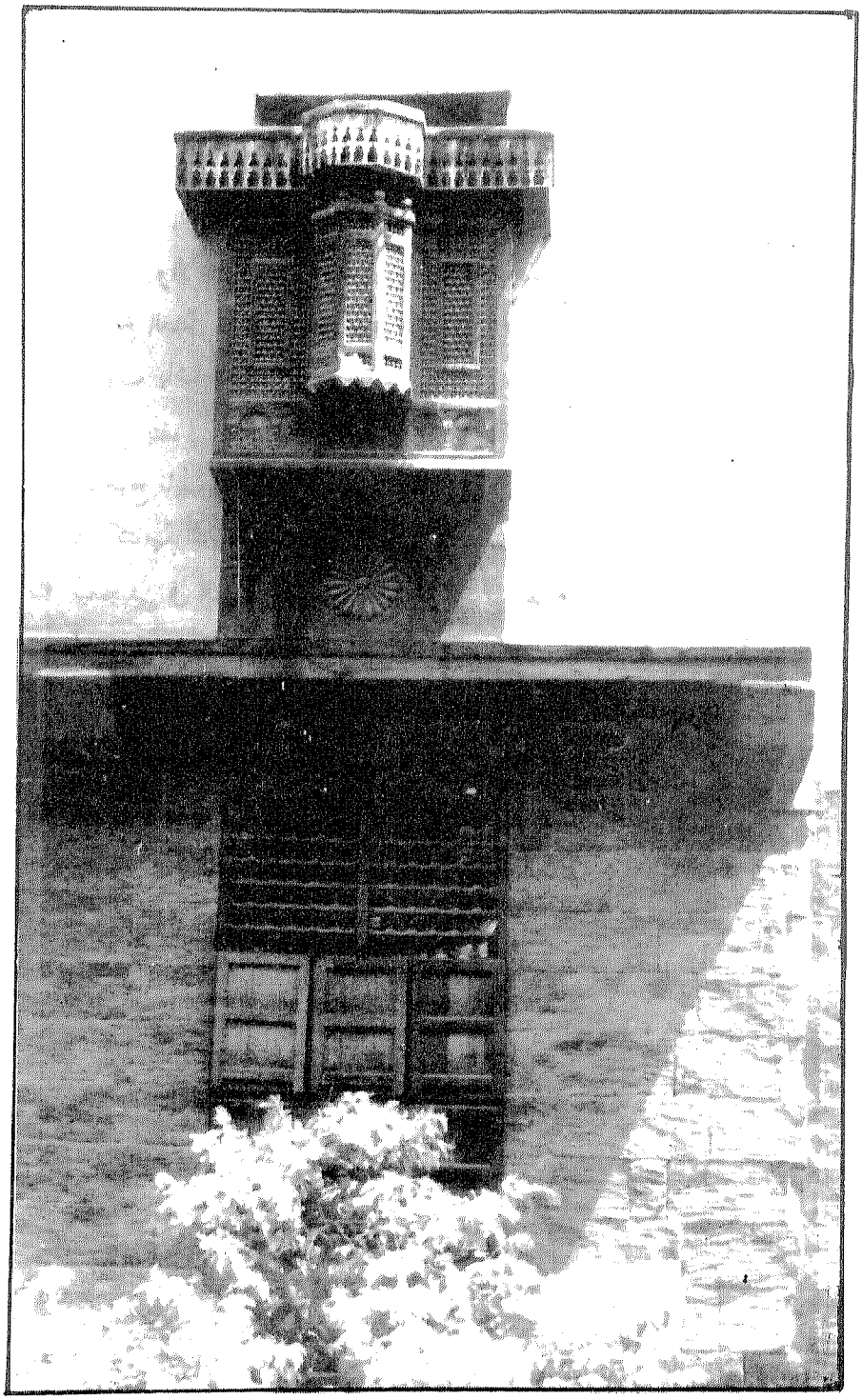

بيت جمال الدين الذهبى .. وجمال لم يندثر

● احنا صحيح أكلنا رخيص ولبسنا جرير .. واتمتعنا كتير لكن الناس من ٦٠ سنة ماكانتش كتير بالشكل ده .. أنا كلت اللحمة بقرشين والحلاقة عندى كانت بتلاتة تعريفة .. وشلن للكبارات اللى أفرش لهم الفوطة النضيفة .. دلوقت الحلاقة بربع جنيه ونص جنيه ..

● الحارة هنا اتغيرت من حيث الناس .. كان زمان فيها العلماء اللى علمونا الأدب والأخلاق .. والذوق وكنا نعتبرهم كآباء لينا .. كان فى الحارة الشيخ العدل .. والشيخ محمد عز .. والحاج محمد الحمامى .. وخرج منها شريف باشا العبد محافظ أسكندرية ..

● الناس بتقول على بيت الذهبى كان ساكن فيه نابليون .. لا .. ده مش صحيح نابليون سكن فى بيت الألفى فى الأزبكية لما نزل مصر «هذا صحيح فى كتاب التاريخ» ..

● بيعجبنى فى التليفزيون ربيع العمر وكل المواضيع والتمثيليات .. ده كده عال أوى .. حد كان يصدق إن التشخيص ييجى لحد البيت ..؟؟

أمر عائدة إلى أول الحارة .. إلى خارج حارة خوشقدم وقد بانت مأذنة الحسين وقباب الأزهر الشريف ..

● من أمام القهوة الحديثة التى لاتمت للحارة بصلة أنحدر إلى شارع الغورية وصوت أم كلثوم يلعلع فى جنبات الحارة الضيقة ..

أهـل الهـوى ياليـل
فاتـوا مضـاجعهم
واتجمعـوا ياليـل
صحبـة ونامعهـم

.....
.....
.....
.....
.....

حـــــارة التربيعـــة

شارع خاص جدا !!
هنا يباع الحذاء بـ ٣ جنيهات والعطارون يطالبون بتحويلهم إلى دكاتره .. !!

بمجرد أن خطوت أولى خطواتى فى شارع التربيعة بحى الأزهر شممت على الفور رائحة الزمان القديم .. وهل غير الزمان القديم كان يحتوى على مثل هذا الشارع الهادىء الوديع .. المظلل بسقف يعلوه .. فيجعل الضوء بداخله خافتا .. شاعريا .. ؟؟

من فرط هدوء هذا الشارع تحسبه جزءا منفصلا بعيدا كل البعد عن شارع الأزهر الصاخب المزدحم على الدوام .. وهو ينقلك بجوه وروائح العطارة التى تحملها ذرات هواءه عميقة نفاذة إلى قاهرة أخرى بعيدة لم ندركها نحن أبناء هذا الجيل ..

- قاهرة العربات بالخيول .. والبشمك .. وزفة المحمل الشريف .. والمشربيات .. والقصور .. قاهرة قرن وأكثر من الزمان الذى مضى ولن يعود ..

- الشارع ضيق جدا بحيث لا يستطيع إثنان أن يمشيا فيه متجاورين .. وهو لهذا يعطيك إحساسا بالخصوصية وبأنك تمشى فى شارعك الخاص .. ومنذ أول خطوة لك فيه تبدأ فى تلقى التحيات عن يمين ويسار فى مودة وترحيب أصحاب البيت الذين أقبل عليهم ضيف عزيز .

وللدكاكين الصغيرة المتلاحقة فى شارع التربيعة شكل خاص فمعظمها يرتفع عن الأرض بمقدار متر تقريبا .. وفى الداخل على بساط أو كليم أكل عليه الدهر وشرب يتربع صاحب الدكان وبجواره عدة القهوة والشاى بينما الحديث يدور بينه وبين جيرانه طيلة النهار .

دكاكين العطارة هى الغالبة فى شارع التربيعة ومن أجل ذلك تفوح فى جنباته رائحة قوية هى خليط من كل الأصناف ثم .. الى جانب العطارة هناك

بائعى السجاجيد والأكلمة والشيلان الصوف ثم الفئة الثالثة فى الشارع هى بائعة الأقمشة الحريرية والنايلون بالجملة .. الزاهية بل الزاعقة الألوان .

والتربيعة هى الإسم الذى يطلق على الجزء الأول من الشارع .. أما بقيته فيمتد تحت إسم شارع الفحامين فهو شارع واحد طويل أوله اسم التربيعة وباقيه يمتد تحت إسم الفحامين ..

هذا هو وصف شارع التربيعة والفحامين فى أيامنا هذه عام ٨٠ وهذا كان وصفه أيضا زمان .. فمنذ حوالى المائة عام عندما كتب على باشا مبارك خططه التوفيقية قال عن الشوارع :

« هو من أبهج الشوارع وأصقعها إلا أنه ضيق جدا لا يستطيع المار به أن يجوز راكبا دابته إلا بمشقة ويسكنه كثير من الماوردية الذين يبيعون الأعطار ونحوها .. وكثير من تجار الحرير الذين يبيعون الشاهى والكريشة والحرير ونحو ذلك وبعض المغاربة الذين يبيعون الطرابيش والبطانيات والأحرمة ونحو ذلك » .

الحرجل .. وعرق الذهب .. وعين العفريت ..

لا يملك الإنسان إلا أن يستعمل الصوت الخفيض عندما يدخل شارع التربيعة ويتبين مدى هدوءه وانخفاض الصوت فيه .

- فى أول محل على يمين الشارع كان يجلس كهل مسن على مصطبة تعلو عن الشارع مفروشة كما ذكرت بالأكلمة وأمامه ميزان وحوله أكوام من شلل صوف التريكو المتعدد الألوان ..

الحاج عطية الوجيه فى التربيعة منذ ما يقرب من الخمسين عاما ومن قبله كان والده فى نفس المكان ..

- قال لى إن المكان بنفس دكاكينه وأشخاصه كما هو منذ دخله من خمسين عاما ليس فيه شخص مستجد فالدكان يظل فى الأسرة الواحدة أجيالا عديدة يتوارثونه فلا يخرج منهم إلا نادرا ..
- يبيع الحاج عطية فى دكانه الصغيرة هذه خيوط الصوف والقطن والحرير بسعر الجملة .

● من محله هذا فى صرة مصر التجارية كما يقول ربى الحاج عطية سبعة من البنات وولدين احدهما نقيب فى الجيش .

● جاء الحاج عطية .. وفى محل على نفس نمط محله أيضا أى يرتفع عن الأرض قليلا شيخ بشوش الوجه .. محله يلمع كل ركن فيه الحرير فى عقود طويلة من كرات صغيرة ملفوفة بالحرير ألوان .. وشرائط طويلة مجدولة من الحرير وهو يلف هذه الشرائط والعقود كل لون على حدة ..

دكان عم محمد السيد وادى هذا اسمه دكان عقاد أى يعقد الخيوط ويجدلها ليصنع « قطان » الجلاليب البلدى والصديرى والقفطان ويصنع أيضا زرارير الجلاليب الصغيرة باليد ومن الحرير ..

قال العقادة عندى عقادة بلدى .. يعنى بس للجلاليب والقفاطين .. لإن فيه عقادة افرنجى خاصة بالستاير وكلف الفساتين والتنجيد .. دى مالناش دعوة بيها .. طول عمرى دى شغلتى فى نفس المكان .. كل الشغل من الحرير . حرير طبيعى بييجى من الصين وحرير صناعى من كفر الدوار ..

قطان الجلابية البلدى ده أبيعه بالجرام بستة مليم والزر بالعقد بأربعين قرش ملفوف على كتان ..

أحلام عم محمد وادى لا تتجاوز أولاده .. يحلم باليوم الذى يرى فيه طارق آخر الأولاد متوظف ومتجوز ساعتها .. سيرتاح من لف الحرير ..!!

* * *

الصوت الوحيد الذى كان يهدر فى الشارع مع ذلك أيضا فى هدوء نسبى كان صوت طاحونة العطارة التى كان صاحبها الآن غير موجود تاركا إياها تعمل فى نشاط ..

وإلى دكان العطار المواجه لها تماما دخلت ليشرح لى عم حسن ثابت بعض ما رأته عيناى فى دكان عطارته ..

● قال .. دى كناسة العطارة يعنى بقايا العطارة ينضاف لها شوية حاجات كدة وتبقى بخور عال العال تباع بخمسه صاغ الوقية .. وده « شيخ خراصان » يتغلى ويتشرب يعالج المعدة تماما .. وده « بذر برسيم » يترش فى

البيت يجلب الحظ ويمنع العكوس .. وده «حرجل » يتشرب للكلى .. وده « كمون كرامانى » مش للطبيخ .. لأ لعلاج النقرس وروماتيزم المفاصل .. وده « عرق دهب » يتكحلوا بيه عشان ينزل الدمعة ويعالج العين .. ودى « عين العفريت » تمنع الأعمال وتخوف الجان .. ودى « كبابه هندى » تطعم الأكل وتستعمل فى البهارات .

- وكفاية يا عم حسن شايف متجر العطارة واسع رحيب وأنا لا أملك من الوقت الكثير ..

النسـر ضـد البرشـام :

صاحب طاحونة العطارة كان قد وصل الآن كلما سألته كان يجيب دانا سيد أحمد على سعودى الشهير بالنسر .. مافيش حد فى التربيعة والفحامين ما يعرفنيش .. إزاى يا هانم ما تعرفنيش ..؟؟

- اضطررت للاعتذار له بزمانى القاسى الذى لم يجعلنى من سكان التربيعة والفحامين فلم يحصل لى هذا الشرف الكبير ..
- قال عم سعودى الشهير بالنسر ..
- الطب « وغلاوتك » يامدام أصله عند العطار .. ولو فيه مفهومية يدرسوا العطارة دى فى كلية الطب والعطار يدى فيها دروس ..
- أنا باطحن كل أصناف العطارة عندى هنا بالطاحونة دى .. لكن فيه حاجات لازم تندق بالإيد زى عطارة الأعصاب اللى هيه .. خلنجان .. وجنزبيل وداره صينى .. وجوزة الطيب .. والحمد لله الشغل ماشى عال ..
- أغلى كيلو عطارة .. أجرة طحنه عشر قروش زى السحلب والمغات .. أصل الطاحُونة دى عقبال عندك بتربى ١٦ عيل وعيله ..!! مستغربة ليه ..؟؟
- أصل ربنا سبحانه وتعالى ما يتعاندش ..!!
- أنا اجوزت على مراتى عشان الخلفة بصيت لقيت ربنا فتح عليا فتوح .. اللى كانت ما بتخلفش جابت ٨ والجديدة جابت ٨ ولسه ما يستجد من عيال .. أصل أنا مش من أنصار البرشام ..!!